خطبة صلاة الجمعة 10/ 4/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(محبة الآخرين)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِب الصَّوم وَالصَّلاةِ**» [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذ هي الخطبة الثانية عشرة في سلسلة خطب عنوانها (**فضيلة... أخلاق تعاملية**)، بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لايليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (**محبة الآخرين**)

أيها الإخوة:

محبة الآخرين أصل ترجع إليه مكارم خلقية كثيرة، فالتعاون والإيثار والنصح والبر والمشاركة في السراء والضراء ونحوها مكارم أخلاق، منبعها محبة الآخرين.

الحسد والبغضاء والغيبة والظلم والإضرار والأثرة ونحوها مساوئ أخلاق، منبعها حب الذات وكراهية الآخرين.

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره.

والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا.

ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب الرجل لايحبه إلا لله.

رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه...

هذه أحاديث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حفظناها في عشرات ومئات غيرِها وانغرست في أعماقنا تدرّبنا على محبة الآخرين، وتعلّمنا كيف يحب بعضنا بعضاً، وتحثنا على الحب في الله، حبٍ مجرد عن المصلحة المادية أو المعنوية.

أحبك لأنك أخي وحسب.

وتحبني لأنني أخوك وكفى.

إنها محبة الآخرين، خلق وفضيلة تنبعث منها فضائل جمة وتتناثر منها أخلاق حسان.

أخرج الطبري في تاريخه: (استأذن معاويةُ بن أبي سفيان رضي الله عنه والي دمشق أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غزو بلاد الروم بحراً, فسأل عمرُ عمرَو بن العاص عن البحر: أن صف لي البحر فكتب له يقول:

يا أمير المؤمنين, إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء, إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاغ العقول، الناس فيه كدودٍ على عود, الداخل فيه مفقود، والخارج منه مولود، إن مال غَرِق, وإن نجا بَرِق- يعني: فَزِع مبهوتاً -، فكتب عمر إلى معاوية:

(لا والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً, وتالله لمسلمٌ واحد أحبُّ إلي مما حَوَتِ الروم، فإياك أن تعرِّض مسلماً للهلاك وقد تقدمت إليك - يعني بالأمر — والسلام)).

إنه خلق محبة الآخرين تنبعث منه فضائل جمة وتتناثر منه أخلاق حسان.

كتب الإمام علي زين العابدين في وصيته للزهري: (اجعل المسلمين منك بمنزلة أهل بيتك، فاجعل كبيرهم منك بمنزلة والدك، واجعل صغيرهم منك بمنزلة ولدك، واجعل تِرْبَك بمنزلة أخيك، فأيَّ هؤلاء تحب أن تظلم، وأيَّ هؤلاء تحب أن تدعو عليه، وأيَّ هؤلاء تحب أن تهتك ستره؟

وإن عرض لك إبليس أنَّ لك فضلاً على أحد من أهل القبلة فانظر:

إن كان أكبر منك فقل: قد سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني.

وإن كان أصغر منك فقل: قد سبقته بالمعاصي والذنوب فهو خير مني.

وإن كان تربك فقل: أنا على يقين من ذنبي وفي شك من أمره، فمالي أَدَعُ يقيني لشكي.

وَإِنْ رَأَيْتَ إِخْوَانَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُكْرِمُونَكَ وَيُعَظِّمُونَكَ وَيَصِلُونَكَ فَقُلْ أَنْتَ: هَذَا فَضْلٌ أَخَذُوا بِهِ، وَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ جَفَاءً وَانْقِبَاضًا فَقُلْ: هَذَا ذَنْبٌ أَحْدَثْتُهُ).

إنه خلق محبة الآخرين تنبعث منه فضائل جمة وتتناثر منه أخلاق حسان.

ذكر لنا الشيوخ أن عالماً من علماء هذه البلدة مرضت زوجته مرضاً أقعدها الفراش سنوات، فاعتذر زوجها الشيخ عن دروسه ومحاضراته معتكفاً على خدمتها ورعايتها، ماعدا خروجه للجُمَع والجماعات، ودرسٍ واحدٍ بين المغرب والعشاء.

فلما توفاها الله، وجاء المعزون الشيخَ، أوحى قائل منهم: أن الحمد لله الذي خفف عن الشيخ أثقاله، فما كان من الشيخ إلا أن دمعت عينه وقال: والله يا ولدي كنت أتمنى بقاءها لأخدمها حياتي كلَّها.

إنه خلق محبة الآخرين تنبعث منه فضائل جمة وتتناثر منه أخلاق حسان.

تذكرون أيها الإخوة أني أصبت بالتهاب قصبات تحسسي، كان يحبس الكلمة في صدري أحياناً، وأنا أدرِّس أو أخطب فلا أستطيع إخراجها إلا بتعب يراه الحاضرون ويلحظه المستمعون.

كتب لي أخ من بلد بعيد يستمع الدروس عبر أجهزة الاتصال الحديثة يقول: أرجوك يا أستاذ اعتن بنفسك، فإني كلما سمعتك تحتبس الكلمة في صدرك شعرت بألم في قلبي وصدري، فتدمع عيني من أجلك.

إنه خلق محبة الآخرين تنبعث منه فضائل جمة وتتناثر منه أخلاق حسان.

حدثنا شيخنا العارف بالله الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله تعالى أنه كان مسافراً لأول مرة إلى الصين للمشاركة في مؤتمر، وبينما كان بعمامته عائداً من مكان المحاضرة إلى الفندق ماشياً واجهه رجل صيني

كبير السن، وقال له بلُغَةِ المستفهم: الله أكبر؟ – أي هل أنت مسلم– ففهم الشيخ المراد وأجابه مؤكداً: الله أكبر.

هنا عانق الصيني الشيخ وضمه إليه قائلاً: إنما المؤمنون إخوة، وبكى الرجلان.

إنه خلق محبة الآخرين تنبعث منه فضائل جمة وتتناثر منه أخلاق حسان.

أيها الإخوة:

إن دعوة الإسلام قائمة على الجماعة وعلى محبة الآخرين وعلى تقديم البر لهم، فالخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله، وما العباد إلا خلق من خلق الله، والمنسوب لجانب الحق تنبغي مراعاة نسبته.

ولكن محبة الآخرين خُلُقٌ لا يضرمه في قلب المسلم إلا حبُ الله وحبُ رسوله صلى الله عليه وسلم، ذلك الحب الذي يفجّر في النفس الإنسانية عجائبَ السلوك وغرائب المعاني المقدسة الراقية، وليس شيء يخلِّص الإنسان من معايبه النفسية والسلوكية مثلُ الحب.

يقول جلال الدين الرومي عن هذا الحب المقدس:

(إنَّ الحب يحوّل المرَّ حلواً، والترابَ تِبراً، والكدرَ صفاءً، والألمَ شفاءً، والسجنَ روضةً، والسقمَ نعمةً، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة، ويسوّدُ العبد.

إنها صحةُ الروح بل روح الصّحة، يتمنى أصحاب النّعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم).

ولعل أكبر فاجعة أصيب بها العالم الإسلامي خفوت جذوة حب الله ورسوله في قلوب المسلمين، الأمر الذي أوقع بينهم وأغرى بينهم العداوة والبغضاء بعد أن ألف حب الله ورسوله بين قلوبهم.

أختم خطبتي بالحديث عن: **كيف تعزز محبةَ الآخرين عندك؟**

1 – الإكثار من ذكر الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لأن من أكثر من ذكر شيء أحبه، فإذا امتلأ قلبك حباً فاض على العباد محبة، وإذا عمَّر الله بالذكر قلبك أطلق بالخير جوارحك.

يقول ابن قيم الجوزية: (فمحبة الله ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين، وإنما تقر أعين الناس بهم على حسب قرة أعينهم بالله عز وجل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات).

2- **خدمة الآخرين ومعونتهم:**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**» [مسلم].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**» [البخاري في الأدب المفرد].

وقال صلى الله عيه وسلم: «**تهادوا، فإنَّ الهدية تُذهِب وَحَرَ الصَّدر**» [الترمذي]، يعني: غيظ الصَّدر.

ويدخل في خدمة الآخرين ومعونتهم بر الوالدين وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجوار وأداء الزكاة والصدقات.

3- **الفرح لفرحهم والحزن لحزنهم:**

بمشاركتهم أفراحهم وأتراحهم، ومن هنا –والله أعلم – شرع الإسلام زيارة المريض وتعزية المصاب، وإجابة الداعي، وتهنئة العائد من سفر.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من عزَّى مصاباً فله مثلُ أجره**» [الترمذي].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**حقُّ المسلم على المسلم سِتّ**»، قيل: ما هنَّ يا رسولَ الله؟ قال: «**إذا لقيتَه فسلِّمْ عليه، وإذا دَعَاكَ فأَجِبْهُ، وإذَا استنصحَكَ فانْصَحْ له، وإذا عَطَسَ فَحمِدَ الله فشَمِّتْه، وإذا مرضَ فعُدْه، وإذَا ماتَ فاتْبَعْهُ**» [مسلم].

إذاً هي **ثلاثة تعينك على محبة الآخرين:**

1- الإكثار من ذكر الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
2- خدمة الآخرين ومعونتهم.
3- الفرح لفرحهم والحزن لحزنهم.

ختاماً أيها الإخوة:

لموضوع محبة الآخرين تتمة إن شاء الله، غير أني أختم بحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه البيهقي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن يَألفُ، ولا خير فيمن لا يَألفُ ولا يُؤلَف**».

والحمد لله رب العالمين